

المحاضرة الثالثة

أهمية التنشئة الاجتماعية في تشكيل العلاقة التربوية

د. ياسين هارين

مقدمة:

المدرسة لا تُعلم وحدها فنجاح العلاقات التعليمية أي التفاعلات الهادفة والمثمرة بين المعلمين والطلاب والمناهج الدراسية، وبين الطلاب أنفسهم، تتأثر بشكل كبير بقوة تعمل خارج أسوار المدرسة، والهدف من هذه المحاضرة شرح وتفصيل كيفية عمل مؤسسات التنشئة الاجتماعية، وخاصة الأسرة، وجماعات الأقران والمنظمات الدينية والهياكل المجتمعية، باعتبارهم شركاء في إنتاج النجاح التعليمي، كيف يعملون ويؤثرون وفي نجاح العلاقات التربوية، وسوف يؤسس هذا التحليل والنقاش على الأطر النظرية الأساسية ونتائج بعض البحوث التجريبية الداعمة لتوضيح هذا الأثر، مع إيلاء اهتمام خاص للأسرة باعتبارها المؤسسة الأساسية للتنشئة الاجتماعية.

1. الأسس المفاهيمية: النموذج البيئي ونموذج الشراكة:

لفهم كيفية تأثير المؤسسات الخارجية على ديناميكيات المدرسة داخليا وضمن رسم معالم العلاقات التربوية، نحتاج إلى أسس نظرية متينة تعطينا تفسيراً منطقياً لخلفية هذه العلاقة وهذا التأثير، وفي هذا الإطار يظهر سياقان نظريان مهمان يفسران سيرورة هذه العلاقة هما:

أ. نظرية النظم البيئية لبرونفنبيرنر (Bronfenbrenner's Ecological Systems Theory)

حيث تفترض نظرية النظم البيئية أن التنمية البشرية ومنه النجاح التعليمي التربوي ينبثق من أنظمة بيئية متداخلة ومتراصة هي

- النظام الجزئي ويتضمن البيئات المباشرة التي يتفاعل فيها الطفل بشكل مباشر على غرار الأسرة، والفصل الدراسي، ومجموعات الأقران. وتعمل جودة علاقات المعلم بالطلاب، وإشراف الوالدين على الواجبات المنزلية، والمعايير الأكاديمية التي يلتزم بها الأقران جميعها مؤثراً قوياً ضمن هذا النظام.
- النظام الوسيط: ويتضمن الروابط الحاسمة بين الأنظمة الجزئية، وهنا تلتقي الأسرة بالمدرسة من خلال الاجتماعات بين أولياء الأمور والمعلمين، والنشرات المدرسية، والتواصل بشأن تقدم الطالب، وهنا يذكر برونفنبيرنر بأن قوة هذه الروابط تحدد نتائج النمو أكثر من أي نظام جزئي منفرد.

• النظام الخارجي: ويتمثل في تأثيرات غير مباشرة، كالمرونة التي يديها الوالدان مثلاً في حضور الفعاليات المدرسية، واهتمامهم بها، إضافة للموارد التي يوفرها المجتمع، وسياسات المنطقة التعليمية ويعكس النظام الخارجي هذا القيم الثقافية الأوسع نطاقاً كالمعتقدات المجتمعية حول التعليم، والهياكل الاجتماعية والاقتصادية ذات العلاقة غير المباشرة به، ورأس المال الثقافي الذي يحوزه المجتمع. وجميع هذه الأنظمة وقيمها لا شك أنها تتغير بمرور الوقت؛ فقد يختلف أداء بنية الأسرة نفسها خلال سنوات الدراسة الابتدائية مقارنةً بمرحلة المراهقة، ويُعلمنا النموذج البيئي أنه لا يمكن فهم العلاقات التربوية داخل المدرسة دون دراسة التفاعلات بين هذه الأنظمة.

ب. نظرية تداخل مجالات التأثير لجويس إبستين **Joyce Epstein** : وفيها يؤكد إبستين أن الطلاب يتعلمون بشكل أفضل ويحققون نجاحات أعلى عندما تتكامل الأسرة والمدرسة والمجتمع بدلاً من أن تتباعد. ويقترح النموذج بنيتين؛ خارجية تُصوّر المنزل والمدرسة والمجتمع كمجالات ديناميكية يمكنها تحقيق تداخلات تزيد حيناً وتقل حيناً آخر، وأخرى داخلية تمثل وجهاً للعلاقات والتفاعلات بين الآباء والأبناء والمعلمين وأفراد المجتمع.

وهنا يقدم إبستين مفهوم "الأسر الشبيهة بالمدرسة" و"المدارس الشبيهة بالأسر". بحث يرى أن الأسر الشبيهة بالمدرسة تقدم المهارات الأكاديمية، وتُساعد في الواجبات المنزلية، وتُعامل الأنشطة المدرسية كجزء من المهمات الطبيعية للحياة اليومية داخل الأسرة، وفي المقابل، تُركّز المدارس الشبيهة بالعائلة على الاهتمام الفردي، وتُهيئ بيئات داعمة وتربوية، وتُعزّز العلاقات التبادلية مع الأطراف الخارجية، ومتى توافرت هاتان الصفتان، ازداد التداخل، وتحسّنت نتائج الطلاب. كنتيجة حتمية لجودة في العلاقات التربوية.

وضمن هذا الجهد يحدد إبستين أيضاً ستة أنواع من المشاركات التي يُمكن للمدارس تنميتها: التربية، والتواصل، والتطوع، والتعلم في المنزل، وصنع القرار، والتعاون مع المجتمعات، ويؤكد أن نتائج الأبحاث التي أجريت في كثير من المدارس أظهرت الحاجة إلى برامج شاملة تتضمن الأنواع الستة جميعها لتحقيق تحسينات ملموسة في تحصيل الطلاب وحضورهم وسلوكهم وعلاقاتهم التربوية.

2. الأسرة ودورها في تشكيل العلاقة التربوية:

تُعتبر الأسرة عالمياً أول وأهم عامل للتنشئة الاجتماعية ذات التأثير المباشر في العلاقات التربوية، ويظهر هذا التأثير من خلال آليات متعددة هي:

- رأس المال الثقافي للأسرة : إذ لا يزال مفهوم بيير بورديو لرأس المال الثقافي للأسر أساسيًا في هذا السياق، فالأسر تنقل الميول والمعارف والكفاءات اللغوية التي تتوافق أو تختلف عن توقعات المدرسة، فالطفل الذي ينتمي إلى أسرة تُقدّر موضوع الحديث، وتستخدم أساليب كلامية متطورة، وتمتلك ومواد تعليمية ثرية، تُسهّل بناء علاقات تربوية أكثر سلاسة خلافاً للأسر التي لا تملك ذلك الرصيد أو يختلف رصيدها اختلافاً كبيراً عن ثقافة المدرسة، وعلى هذا الأساس قد يُسيء كثير من المعلمين فهم سلوكيات التلاميذ، وقد يشعر هؤلاء التلاميذ بانقطاع ثقافي بسبب هذا التضارب.
- رأس المال الاجتماعي: رأس المال الاجتماعي يوضح كيف توسع هياكل الأسرة أو تُقيّد الشبكات التي تتدفق من خلالها الموارد التعليمية، إذ توفر الأسر المكونة من أبوين، وشبكات القرابة الممتدة، والروابط المجتمعية القوية للأطفال العديد من الداعمين البالغين للفرص التعليمية المتميزة، وربما قد تشكل بذاتها بيئة ضاغطة لما تضعه من معايير خاصة للنجاح. أما غياب هذا النوع من رأس المال سواءً كان ذلك بسبب تفكك الأسرة، أو التنقل الجغرافي، أو العزلة الاجتماعية، فقد يُضعف شبكات الدعم لدى الأطفال عند مواجهة تحديات المدرسة فيصعب نمط توجيه سليم للعلاقات التربوية.

آليات تأثير الأسرة على العلاقات المدرسية

كيف تؤثر الأسرة تحديداً على نجاح العلاقات التعليمية داخل المدرسة؟ للإجابة عن هذا السؤال وبالرجوع إلى نتائج كثير من الدراسات تتحدد لدينا عدة مسارات نوجزها فيما يلي:

- التنشئة الأكاديمية: تُساعد الأسر التي تُناقش التجارب المدرسية، وتُعبّر عن التوقعات التعليمية، وترتبط الجهد الحالي بالأهداف المستقبلية، الأطفال على تنمية ثقتهم بأنفسهم أكاديمياً، ويُمكن هذا المورد النفسي الطلاب من التفاعل بشكل أكثر فعالية مع المعلمين و الزملاء والمثابرة في مواجهة الصعوبات.
- النمذجة السلوكية: عندما يُقدم الآباء نموذجاً للقراءة وحل المشكلات والفضول الفكري، يستوعب الأطفال هذه السلوكيات باعتبارها سلوكيات طبيعية في البيئات التعليمية.
- الدعم الهيكلي: يُهيئ توفير مساحة للدراسة، ومواد دراسية، وروتين ثابت للتعلم، الظروف اللازمة للنجاح المدرسي، ولا يقتصر الأمر على الموارد فحسب، بل على قيمة استثمار وتفعيل تلك الموارد.
- الدعم العلائقي: يُرسخ الآباء الذين يتواصلون مع المعلمين، ويحضرون الفعاليات المدرسية، ويدافعون عن أبنائهم، حضوراً اجتماعياً في المدرسة، وهذا من شأنه أن يؤثر إيجاباً على تصورات المعلمين

وتوقعاتهم، للعلاقة التربوية بينهم وبين التلاميذ، وقد يحدث هذا التواصل على مستوى أولياء الأمور فتتأثر العلاقات التربوية مباشرة بين التلاميذ أنفسهم.

- الأمن العاطفي: توفر بيئة أسرية مستقرة وداعمة الأساس العاطفي الذي يسمح للأطفال بخوض تجارب أكاديمية جريئة، وتقبل النقد، وتكوين علاقات آمنة مع المعلمين والزملاء.

3. جماعات الأقران (مؤسسة التنشئة الاجتماعية الأفقية) ودورها في تشكيل العلاقة التربوية:

بينما تمثل الأسرة التنشئة الاجتماعية الرأسية (الانتقال بين الأجيال)، تشكل جماعات الأقران التنشئة الاجتماعية الأفقية، فتأثير الأقران على العلاقات التربوية عميقٌ وغالبًا ما يُستهان به، حيث تُرسخ جماعات الأقران مناخًا معياريًا داخل المدارس الصفوف الدراسية. ففي البيئات التي يُنظر فيها إلى الجهد الأكاديمي نظرةً سلبية، تتوتر العلاقات التعليمية بين المعلمين والطلاب لأن الطلاب مُضطرون إلى إدارة تبعات الانطباع الذي يتركه، أما في بيئات الأقران التي تُعلي من شأن التحصيل الأكاديمي، فتسود بيئة يتنافس فيها الطلاب على جذب انتباه المعلمين وتقديرهم الفكري، مما يُعزز الروابط التربوية بينهم.

علاوة على ذلك، تُوفر مجموعات الأقران دعمًا عاطفيًا للانخراط في المدرسة إذ تُخفف الصداقات من القلق، وتُعزز الشعور بالانتماء، وتُهيئ بيئات آمنة للمغامرة الأكاديمية. ويُمكن أن يؤدي غياب الروابط الإيجابية مع الأقران، كالعزلة الاجتماعية أو الرفض، إلى تقويض أكثر العلاقات دعمًا بين المعلم والطالب.

4. المؤسسات الدينية والمجتمعية ودورها في تشكيل العلاقة التربوية:

تُمثل المنظمات الدينية والهياكل المجتمعية طبقات إضافية للنظام الخارجي والنظام الكلي الفاعل في المجتمع، فغالبًا ما تُعزز المؤسسات الدينية القيم المتوافقة مع النجاح التعليمي، وترسخ فكرة الانضباط، والتحمل، واحترام السلطة، والمسؤولية الأخلاقية، كما يُمكنها توفير موارد تعليمية إضافية كبرامج الدروس الخصوصية، والتوجيه، والعمل في إطار جمعيات ثقافية أو قرائية أو بحثية، أما بالنسبة للمجتمعات المتوسطة أو المهمشة، فغالبًا ما تُشكل المنظمات الدينية ملاذًا للتخفيف من آثار الحرمان الهيكلي على التحصيل الدراسي في كثير من المجتمعات الرأسمالية.

وتُوسّع المؤسسات المجتمعية الفاعلة كالمكتبات ومراكز الترفيه ومنظمات الشباب والمجموعات الثقافية نطاق بيئة التعلم خارج أسوار المدرسة. وتحدث هذه المؤسسات آثارًا إيجابية غير مباشرة لنماذج علائقية تربوية

ناجحة، فالطفل الذي يلتحق ببرنامج علوم مجتمعي يُضفي حماساً ومعرفةً مُعززة على الفصل الدراسي، مما يُثري التفاعل بين المعلم والطالب وزملائه.

5. الشراكات المؤسسية المدرسية ودورها في تشكيل العلاقة التربوية:

المدارس التي تُنشئ فرق عمل للشراكات التي تتألف من معلمين وإداريين وأولياء أمور وشركاء مجتمعيين أكثر قدرة على استدامة أنشطة المشاركة الشاملة المرتبطة بأهداف تطوير المدرسة، وهي الأكثر تأهيلاً لتأصيل نماذج ناجحة لعلاقات تربوية إيجابية ومستدامة.

إذ تعتمد المدارس الفعّالة أسلوب التواصل المباشر بدلاً من انتظار مبادرة الأسر. وهي تُدرك تنوّع أشكال الأسر وخلفياتها الثقافية، وتُعيد تعريف مفهوم "التطوّع" ليشمل أولياء الأمور الذين يدعمون التعلّم في المنزل، وليس فقط أولئك القادرين على حضور فعاليات المدرسة خلال النهار. كما تُنشئ قنوات تواصل ثنائية الاتجاه فتقدّر معرفة أولياء الأمور بأبنائهم، بدلاً من مجرد نقل المعلومات من المدرسة إلى المنزل في اتجاه واحد. ومن الأهمية بمكان أن تعالج المدارس العوائق التي تحول دون المشاركة، فالآباء العاملون، والاختلافات اللغوية، والتجارب المدرسية السلبية السابقة، وانعدام الثقة الثقافية، كلها عوامل قد تستبعد الأسر من الشراكة، والمدارس التي لا تزيل هذه العوائق تقوض من فرص النجاح على مستوى العلاقات التربوية.

6. نحو فهم متكامل لدور التنشئة الاجتماعية في تشكيل العلاقة التربوية:

- يعتمد نجاح العلاقات التربوية داخل المدرسة على بيئة تفاعلية تتسم بما يلي:
- توفر الأسرة على رأس المال الثقافي والاجتماعي، والأمان العاطفي، والتنشئة الأكاديمية التي تُهيئ الطفل للانخراط في المدرسة.
- وتُنشئ جماعات الأقران مناخات معيارية وأطراً تفسيرية تُؤثر في كيفية تفاعل الطلاب مع بعضهم ومع المعلمين.
- وتُوسع المؤسسات المجتمعية والدينية نطاق الموارد، وتُعزز القيم، وتُخفف من حدة الحرمان.
- وتُصمم المدرسة لنفسها هياكل تُحقق تكاملاً مثمراً بين هذه المجالات، بدلاً من السماح لها بالبقاء منفصلة أو متنافرة.

وعندما تتناغم هذه الأنظمة أي عندما تُصبح الأسر شبيهة بالمدرسة، والمدارس شبيهة بالأسر، والمجتمعات منخرطة في المهمة التربوية سيستفيد الطلاب من شبكات دعم المتكاملة المتوفرة له، أما عندما تتعارض القيم

الأسرية مع توقعات المدرسة، أو عندما تُقوَّض أو تقشل معايير الأقران الجهد الأكاديمي، أو عندما تغيب موارد المجتمع، سوف تواجه العلاقات التربوية تحديات هيكلية خطيرة تضع المعلم والمدرسة أمام تحديات كبيرة، لتنظيم العلاقات التربوية وتوجيهها إيجابيا ومتوازنا.

خاتمة:

أولاً، يجب تجنب منظور العجز الذي يُلقى باللوم على الأسر في الصعوبات التعليمية وصعوبات بناء علاقات تربوية ناجحة، فبينما تُعدّ مشاركة الأسرة بالغة الأهمية، إلا أن قدرة الأسرة تتشكل بفعل عوامل هيكلية - كالهشاشة الاقتصادية، والعنصرية، ووضع الهجرة، وظروف سوق العمل - والتي يجب على المدارس وصناع السياسات معالجتها. فالسؤال ليس "لماذا لا يهتم الآباء؟" بل "ما هي الهياكل التي تُمكن أو تُقيّد مشاركة الآباء؟" ثانياً، غيّر التحول الرقمي في التعليم بيئة التنشئة الاجتماعية. فقد غيّر التعلم عن بُعد، ومنصات التواصل الرقمي، وشبكات الأقران عبر الإنترنت، كيفية تفاعل الأسر والمدارس والمجتمعات. وقد كشفت جائحة كوفيد-19 هذه الديناميكيات، مُظهرة إمكانات التكنولوجيا في التواصل، ثالثاً، مع ازدياد تنوع مجتمعاتنا، يزداد تحدي التوافق الثقافي بين المنزل والمدرسة تعقيداً. يجب على المدارس أن تتجاوز توقع اندماج الأسر في ثقافات المدرسة السائدة، وأن تمارس بدلاً من ذلك التبادل الثقافي مع الأسر، أي التعلم من الأسر مع توضيح توقعات المدرسة التي لا يمكن الحيد عنها بوضوح. وعندما تتشارك المدارس والأسر والمجتمعات مسؤولية رعاية الأطفال الذين ينتمون إليها سوف تزدهر العلاقات التربوية ويحقق التلاميذ النجاح.

Primary References

1. Bronfenbrenner, U. (1979). *The Ecology of Human Development: Experiments by Nature and Design*. Cambridge, MA: Harvard University Press.
2. Epstein, J. L. (1987). Toward a theory of family-school connections: Teacher practices and parent involvement. In K. Hurrelmann, F. Kaufmann, & F. Losel (Eds.), *Social Intervention: Potential and Constraints* (pp. 121-136). New York: DeRuyter.
3. Epstein, J. L. (1995). School/family/community partnerships: Caring for the children we share. *Phi Delta Kappan*, 76(9), 701-712.
4. Epstein, J. L. (2001). *School, Family, and Community Partnerships: Preparing Educators and Improving Schools*. Boulder, CO: Westview Press.

5. Epstein, J. L., Sanders, M. G., Simon, B. S., Salinas, K. C., Jansorn, N. R., & Van Voorhis, F. L. (2002). *School, Family, and Community Partnerships: Your Handbook for Action* (2nd ed.). Thousand Oaks, CA: Corwin.
6. Epstein, J. L., & Sheldon, S. B. (2002). Present and accounted for: Improving student attendance through family and community involvement. *Journal of Educational Research*, 95(5), 308-318.
7. Lareau, A. (1989). *Home Advantage: Social Class and Parental Intervention in Elementary Education*. Philadelphia: Falmer Press.
8. Coleman, J. S. (1988). Social capital in the creation of human capital. *American Journal of Sociology*, 94(Supplement), S95-S120.
9. Bourdieu, P., & Passeron, J.-C. (1977). *Reproduction in Education, Society and Culture*. London: Sage.
10. Henderson, A. T., & Berla, N. (Eds.). (1994). *A New Generation of Evidence: The Family Is Critical to Student Achievement*. Washington, DC: National Committee for Citizens in Education.